الفصل الخامس

نحو سياسة هادئة

١ - محاولة انقلاب كيان وسياسة إييتسونا اللينة :

فى أبريل ١٦٥١م توفى الشوجون الثالث إييميتسو متأثرا بمرضه، وبعد ذلك بثلاث أشهر فقط، أى فى يوليو من نفس العام حدثت محاولة انقلاب قادها اثنان من الساموراى المتقاعدين (Ronin) وهما يوى شو - شو ستسو Yoisho Shosetsu (١٦٠٥م - ١٦٥١م) وماروباشى تشويا Marubashi Chūya (؟ - ١٦٥١م). وقد انتهز هذان الساموراى موت الشوجون القوى إييميتسو وتولى ابنه إييتسونا (Ietsuna) منصب الشوجونية وهو لم يزل فى الحادية عشرة من عمره، فخططا لإحداث ثورة عارمة قادا خلالها أكثر من ألفين من الساموراى المتقاعدين الفقراء لإسقاط الباكفو، فقام الثوار بإشعال النيران فى مخزن كبير للأسلحة والذخائر، ولسوء الحظ كانت الرياح فى تلك الليلة شديدة للغاية مما ساعد على انتشار النيران. وقاموا كذلك بإطلاق النيران على مستشارى الشوجون ومساعديهم عند محاولة هؤلاء الصعود إلى قلعة أيدو، كذلك حاول الثوار اقتحام القلعة ولكن محاولتهم هذه باءت بالفشل، وقد أطلق على هذه المحاولة اسم «حادثة كيآن» نظرا لأنها حدثت فى العام الرابع من التقويم الإمبراطورى كيآن، وقد كان لها تأثيرا كبيرا على سياسة الشوجون إييتسونا كما سنرى فيما بعد، وبعد

فشـــل المحاولة تم القبض على أحد مدبرى المحاولة وهو ماروباشى وتم صلبه. أما زميله شوستو فقد انتحر على طريقة الهاراكيرى، وبعد فشل هذه المحاولة تم عقاب العشـــرات من الساموراى الذين اشتركوا فيها إما بالصلب أو بدق أعناقهم.

وعلى الرغم من أن مدبرى هذه المحاولة كانوا يتوقعون عدم نجاحها فقـد أقدمـــوا عليها وذلك لمحاولتهـــم تغيير الواقع الأليم الذى يعيشـــه المئات من الساموراى المتقاعدين الفقراء الذين تزايد عددهم بسبب تطبيق قانـــون التحكم فى المحاربين الذى تحدثنا عنه آنفا. ففى مذكرات مدبر المحاولة شوستســو يقول : «إن ما قمنا بـــه من ثورة لا يعنى أننا بذلك سوف نستطيع أن نسقط الشوجون الرابع، ولكن قمنا بذلك بعد أن أيقنا أن سياســـة الدولة بلا أخلاق والناس يقاسون من الفقر المدقع، ولذلك لم يهمنا ما ســـوف يحدث لنا مع اســـتمرار سياسة الباكفو طويلا على هذا الحال».

إذن لقد وصل الحال بعدد كبير من الساموراى المتقاعدين وغيرهم من الناس إلى وضع مأساوى سوف يجعل الباكفو تتخذ سياسة جديدة تهدئ من أوضاع البلاد وتحاول إرضاء هؤلاء المحاربين والدايميوات الغاضبين الذيـــن انقطع عن كثير منهم الرواتب والعطايا التى كانت الباكفو تبذلها لهم، كذلك كان على الباكفو أن توقف سياســـة القمع نحو الســـاموراى المتقاعدين. وبدلاً من ذلك عملت على تطبيق سياسة تقوم على القوانين والنظم وليس على أساس القمع واستخدام السلاح.

وقد ساعد الشوجون الرابع طوكوجاوا إييتسونا Ietsuna (١٦٤١م - ١٦٨٠م) فى تطبيق هذه السياسة أن الأوضاع فى البلاد أخذت تستقر رويدا رويدا

وذلك بعد انتهاء ثورة شيمابارا والتمكن من الفلاحين وإخضاع ثوراتهم، وكذلك نجاحها في تطبيق سياسة العزلة. ومن أهم القرارات التى اتخذها إييتسونا هو تعديل قانون التحكم فى المحاربين وكذلك منع أخذ الدايميوات كرهائن وغير ذلك من القرارات التى أيدت سياسة اللين، غير أن مثل هذه القرارات وغيرها لم يكن لإييتسونا اتخاذها بدون معاونة من بعض المحيطين به بسبب صغر سنه حينما تولى الشوجونية حيث لم يكن يتعدى الحادية عشر من عمره، وهؤلاء المعاونون هم المستشار الأكبر ساكاى تاداكاتسو Sakai Tadakatsu (١٥٨٧م – ١٦٦٢م) والمستشار ماتسودايرا نوبوتسونا Matsudaira Nobutsuna (١٥٩٦م – ١٦٦٢م) وكذلك عمه هوشينا ماسايوكى Hoshina Masayuki (١٦١١م – ١٦٧٢م). ومن ضمن المشاكل التى عاون فيها هؤلاء الثلاثة الشوجون الرابع إييتسونا فى حلها مشكلة منع كبار رجال الدولة من محاربين عظماء ودايميوات وغيرهما من تبنى ساموراى صغار فى أواخر أيامهم فى الحياة لعدم إنجابهم مما كان له الأثر الكبير فى تزايد عدد الساموراى المتقاعدين والذى بالتالى أدى إلى ثورة كيآن التى سبق وتحدثنا عنها. ولذلك وجدوا أنه لابد من التخفيف من هذا التحريم، وعليه تم السماح لهؤلاء العظماء اتخاذ أبناء بالتبنى إذا ما كان هذا الرجل ما زال دون الخمسين من عمره. أما إذا تعدى الخمسين فلا يسمح له بذلك، وبذلك استطاعت الباكفو تجنب ظاهرة تكاثر الساموراى المتقاعدين الذين كانوا يعانون من الفقر والبطالة مما كان يسبب الكثير من المشاكل للباكفو.

ولكن مهما كانت أهمية القرارات التى جاءت ضمن قانون التحكم فى المحاربين المعدل الذى أصدره الشوجون إييتسونا فى عام ١٦٦٣م

فهى فى الحقيقــة تتضائل فى رأينا أمام أمر تحريم عادة انتحار التابع لدى وفاة ســيده، تلك العادة الســيئة التى كانت ســائدة منذ زمن بعيد فــى اليابــان. وفى الأصل كانت هــذه العادة تجعل زوجة الســيد هى أول مــن تنتحــر وتتبعه إلى العالم الآخر، ولكن بعد ذلك انتشــرت هذه العادة فى عالم الســاموراى أيضا، وقد كان الاعتقاد بين الساموراى قبل عهد إيبتســونا أن انتحار المحارب لدى وفاة ســيده هو عمل من أعمال الإخلاص والوفاء لهذا الســيد فاعتقدوا أن هذه عادة جميلة تحســن من صورة المحارب ولا تســىء إليه. ولكن إيبتسونا عندما حرم هذه العادة جــاء فى تعليل ذلك أن هذه العادة غــير أخلاقية، ولا طائل منها على الإطــلاق ويجب الابتعاد عنها، وإنــه إذا أقدم التابع على الانتحار بعد وفاة ســيده فإن هذا يعنى أن تعاليم وأوامر ســيده لم تكن كافية وعليه تُحســب سقطة على هذا الســيد، ولم ينسحب الأمر على السيد فقط بل على أبناء هذا السيد أيضا لأنهم لم يحاولوا منع الأتباع من الانتحار.

وقد أقدم إيبتسونا على تحريم هذه العادة نظرالتتابع حوادث الانتحار بســبب موت الأســياد، فقبل اثنى عشر عاما من هذا التحريم ولدى وفاة الشــوجون الثالث إيميتسو أقدم على الانتحار مستشاره هوتا ماساموري Hotta Masamori (١٦٠٨م – ١٦٥١م) علــى الرغــم من صغر ســنه ورجاحة عقله المفروضة فيه على أســاس أنه وصل لهذه الوظيفة الرفيعة فى الباكفو. وكذلك انتحر من أجل وفاة ذات الشــوجون المحارب أبى شيجى تسوجو Abe Shigetsugu (١٥٩٨م – ١٦٥١م) وكذلك اتبع نفس الخطوة عدد من المقربين للشــوجون. وقبل هــذه الحادثة وفى عام ١٦٣٦م (١٣ من كانئ) أقدم خمســة عشــر من أتباع المحارب والبطل الشــهير

داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٩٧م – ١٦٣٦م) على الانتحار، بل وقام خمسة أشخاص آخرين بالانتحار قبل انتحار الخمسة عشر تابعا السابق ذكرهم، وفى عام ١٦٤١م قام تسعة عشر شخصا من أتباع سيد مقاطعة كوماموطو هوسوكاوا تاداطوشى Hosokawa Tadatoshi (١٥٨٦م – ١٦٤١م) بالانتحار بسبب وفاة سيدهم.

وبرغم صدور هذا الفرمان بتحريم انتحار الأتباع من أجل سيدهم فلم تتوقف هذه العادة السيئة فى اليابان بصرف النظر عن مدى رجاحة عقل المقدم عليها، بل إننا رأينا كيف أن رجلا بوزن الجنرال نوجى مارى سوكى Nogi Maresuke أقدم على الانتحار مع زوجته لدى وفاة الإمبراطور ميجى فى عام ١٩١٢م، وذلك على الرغم من أن هذا الرجل كان يعد من أعظم الجنرالات الذين أبلوا بلاء حسنا فى الحرب اليابانية الروسية – كما ذكرنا فى كتابنا عن عصر ميجى – وهذا إن دل على شىء فهو يدل على مدى صفة الوفاء التى كان يتمتع بها اليابانيون قديما، وربما حتى اليوم.

ولا يمكن الانتهاء من الحديث عن عهد الشوجون إييتسونا دون ذكر حريق أيدو الرهيب أو ما يطلق عليه أيضا فى المراجع اليابانية «بحريق ميريكى الكبير» Meireki Notaika الذى حدث فى عام ١٦٥٧م فى شهر يناير حيث كانت أجواء الاحتفال بالعام الميلادى الجديد ما تزال حية بين سكان إيدو، وقد تسبب هذا الحريق الهائل فى احتراق حوالى ٦٠٪ من مدينة إيدو، ووصل عدد الضحايا من الموتى ١٠٢ ألف مواطن، وكان أثر هذا الحريق عميقا على مواطنى عاصمة الباكفو ومسئوليها فقد بدأت عملية تطوير واسعة للمدينة واستعادة الحياة الطبيعية استلزمت

جهـودا مضنية مـن كل فرد بالمدينة القلاعية، وحتـى تتفادى حكومة الباكفو أخطار الحريـق داخل قلعة إيدو فقد قامت بنقل مقرات وقصور الدايميوات خارج حرم القلعة، كذلك اضطر الدايميوات أن يقيموا قصورهم فـى الأراضى التى يمتلكونها فـى الضواحى مما أدى إلى انتعاش مناطق جديـدة بعيدا عن مركز العاصمة، أما داخل العاصمة فقد قامت الباكفو بفتح الطرق الواسـعة ومد الجسور على الأنهار الكبيرة مثل نهر سوميدا جـاوا وغيره من الأنهار التـى تتدفق فى المدينـة وحواليها، وخططت الباكفو لتوسيع مدينة إيدو فأصبحت تحتوى على أحياء عديدة متطورة.

وقـد اكتوت العاصمة بعد ذلك وطوال عصر إيدو بما يزيد عن ثمانين حريقا كبيرا من أشهرها حرائق أعوام ١٦٨٢م و ١٧٧٢م وغيرها وبسبب كثرة الحرائق الناتجة عن تلاصق البيوت المصنوعة من الخشب، وكذلك وبـسبب قصر بال سـكان إيدو بسبب الزحام الشـديد ولد مثل شعبى شـهير يقول «إن الحرائق والمشـاحنات هى من أهم ما يميز مدينة إيدو» وتشـترك مدينة إيدو مع مدينة أوسـاكا وكيوطو فى تكوين ثلاثى المدن الكبرى فى اليابان آنذاك (Santo) واللتين عانتا أيضا من نفس المشكلة.

وبصـرف النظر عن ثورة كيآن والتى اسـتهل بها الشـوجون الرابع إييتسـونا حكمـه وحريق إيـدو الرهيب، وبعض المنغصـات من بعض المستخدمين من الساموراى وتصرفاتهم العجيبة التى أدهشت أهالى أيدو خلال ثلاثين عاما هى مدة حكم الشـوجون إييتسـونا ، فقد مضت هذه الفترة بسـلام وذلك بفضل المعاونين الثلاثة للشـوجون والذين ذكرناهم آنفا.

٢ - الشوجون الخامس تسونايوشى غريب الأطوار :

عندما توفى الشـوجون الرابع إيبتسونا فى عام ١٦٨٠م لم يكن لديه ولـدا يخلفـه ، فتولى أخوه الأصغر تسونايوشـى الشـوجونية ، وكانت معظم الفترة التى تولى فيها تسونايوشـى تدعى أيضا جنروكو، وهى تلك الفترة التى كان فيها هيجاشـى يامـا إمبراطورا على اليابان أى منذ عام ١٦٨٨م – ١٧٠٤م. وعلى الرغم من أن فترة جنروكو هذه تميزت بازدهار العلم والأدب بسـبب تشـجيع الشوجون تسونايوشـى للعلوم وبخاصة العلوم الكونفوشيوسية ، إلا أنه بسبب عطفه وحبه الشديدين للحيوانات فقد سبب ذلك للمواطنين أذى ومشاكل عديدة.

أطلق على الشوجون تسونايوشى لقب «موظف الكلاب» وذلك لعنايته الشديدة بالكلاب وعطفه عليها إلى جانب عطفه على الكثير من المخلوقات الأخرى كالأسماك والقطط وحتى الناموس، ولذلك أصدر تسونايوشى فى عام ١٦٨٥م فرمانا يحرم قتل الحيوانات ومعاملتها معاملة حسنة وعلى الأخص الكلاب نظرا لأنه ولد فى عام الكلب.

أما السـبب الرئيسـى الذى أصدر من أجله تسونايوشى هذا الفرمان الغريـب هـو أنـه كان لديه ابن اسمه طوكوماتسـو توفـى صغيرا ، ولم يبق لـه أبناء ذكور بعد ذلك ، فنصحه الراهـب البوذى ريوكو Ryūkō (١٦٤٩م – ١٧٢٤م) بأنه إذا ما اهتم بالحيوانات وغيرها من المخلوقات فسوف يرزق بابن يخلفه فى الحكم ، فأخذ تسونايوشى بنصيحة الراهب وأصدر الفرمان السابق ذكره ، وهو أن يحرم قتل الحيوانات مثل الكلاب والقطـط والأسماك والقواقع ويمنع كذلك بيعها ، وكذلك يمنع اسـتخدام تلك التى يمكن تناولها فى الطعام ، ومن يقوم بقتل هذه الحيوانات وعلى الأخص الكلاب يحكم عليه بالإعدام.

ومن الأمثلة التى تدل على تطرف تسونايوشى فى تطبيق هذا الفرمان الغريب أنه قام بنفى محارب من فئة الهاطوموطو إلى جزيرة هاتشى جو التـى تبعد عن مدينة إيدو ثلاثمائـة كيلو متر فى عرض البحر، وكذلك عاقب تابعه بالموت بقطع رقبته لأن هذا التابع طارد كلبا بسيف خشبى وقتله خطأ ، وهناك مثل آخر على تطرف هذا الشـوجون فى معاقبة من يقتل أو يؤذى كلبا، فقد حدث أن تربع كلب فى عرض الشـارع ومنع عربـة يجرها ثمانية رجال، وحدث أن أخطأ بعض منهم ودفع بالعربة فقتـل الكلب فما كان من الشـوجون إلا أن أصدر أمـرا بإعدام الرجال الثمانية من أجل نفوق هذا الكلب المتغطرس الذى لم يحاول إنقاذ نفسه بالابتعـاد عن العربة، وليـس الكلاب فقط بـل إن الاهتمام امتد حتى يرقـات الناموس، فقـد تم منع تنظيف مياه المجـارى لمجرد أن هذه العملية تؤدى لموت هذه اليرقات!!

ونظـرا للاعتقاد الشـديد بالكلاب وحمل تلـك التى تمرض منها إلى طبيـب مختص بعلاجها، فقد تزايدت أعدادها بدرجة كبيرة حتى قيل إن عدد الكلاب الضالة وصل إلى خمسـين ألف فى مدينة إيدو وحدها، ولذلك تم إنشـاء أماكن لإيوائها فى يوتسـويا وأكوبـو وناكانو، وكانت تكاليـف إيواء وإطعـام هذه الكلاب باهظة، وهذا ما أرهق سـكان إيدو والمقاطعات التى حولها بسـبب الضرائب التى فرضت عليهم من أجل العناية بهذا العدد الكبير من الكلاب هكذا أتعب الشوجون تسونايوشى أهـالى مدينة أيـدو وما حواليها من مـدن بقراراته الغريبـة مما يذكرنا بالخليفـة الفاطمـى الحاكم بأمـر الله الذى أتعب أهـل القاهرة بأوامره الغريبة فى القرن الحادى عشـر ويتشـابه أيضا مع تسونايوشى فى أنه

كان فـي بداية حكمـه يتفانى فى خدمة البلاد والعمـل على ازدهارها وهكذا بدا متناقضا كما نرى من تناقض تسونايوشى حيث ازدهرت أيضا فى عصره اليابان فى مختلف المجالات.

ومـن أكبر المسـاوئ التى ارتكبها نظام الشـوجون تسونايوشـى هو إنتاجه للنقود الرديئة، ففى عهد إييـاسـو كانـت تصنع نقودا جيدة لا يخلط فيها الذهب بالفضة والنحاس، ولكن فى عهد تسونايوشـى اتجه لأسـباب عديدة سـوف نذكرها فيما يلى لإنتاج نقود مزورة خلط فيها كميات كبيرة من النحاس والفضة مع الذهب مما جعل الباكفو تستطيع صنـع كميات ضخمة مـن النقود أدت بالتالى إلى زيـادة دخلها، وكان الـذى اضطر الباكفو إلى ذلك انخفاض إنتاج الذهب بدرجة سـريعة من مناجـم الذهـب والفضة التى اشـتهرت بها اليابان منـذ القدم، كذلك كان لحريـق ميريكى الكبير الـذى تحدثنا عنه آنفا أثره الشـديد على الاقتصاد الباكفو نظرا للتكاليف الباهظة التى أنفقت من أجل إعادة بناء مدينة أيدو وكذلك للمسـاعدات المالية التـى بذلتها الباكفو للدايميوات ومحاربى الهاطاموطو وإلى جانب ذلك ساهم أيضا الشوجون تسونايوشى فى إضعاف اقتصاد الباكفو بسبب الصرف ببذخ على حياة الرفاهية التى كان يحياها.

وبالطبع أدى خروج مثل هذه النقود الرديئة إلى حدوث تضخم كبير فى الأسـواق فارتفعت الأسعار، وعلى عكس ما توقعت الباكفو فقد أدى هـذا إلى إضعـاف اقتصادها وكذلـك أرهق فى ذلك كل من السـاموراى وسكان المدينة.

٣ - عصر الجنروكو

يمثل عصر الجنروكو (Genroku Jidai) النصف الثانى من فترة حكم الشوجودن تسونايوشى تقريبا. وعلى الرغم من غرابة أطوار تسونايوشى فإن شهرة عصر الجنروكو فاقت كثيرا شهرة الشوجون الخامس، وذلك لما عرف عن هذا العصر من تقدم وازدهار فى مختلف مناحى الحياة سواء صناعية أو زراعية أو تجارية أو معمارية أو حتى ثقافية.

فمع تطور مدن مثل أيدو وأوساكا وغيرها من المدن القلاعية ومدن الموانئ فى مختلف أنحاء البلاد تولدت الحاجة لإنتاج منتجات كثيرة تلبى احتياجات حياة سكان هذه المدن، وإذا كان معظم هذه الاحتياجات هى الغذاء والملابس فهى فى معظمها ترجع إلى مواد خام زراعية، ولأن الخضراوات الطازجة هى إحدى المواد الغذائية الهامة لسكان المدن الكبيرة المتطورة، فكان على الباكفو التوسع فى زراعتها حوالى هذه المدن، وبالطبع كان هذا يتطلب أيضا تقنية زراعية متقدمة، وكذلك تحسين وتطوير الآلات الزراعية، وكذلك الأسمدة وغير ذلك من متطلبات الزراعة، فمثلا كانت عملية درس الحبوب قبل عهد جنروكو تتم يدويا، ولكن فى هذا العصر تم اختراع آلة خاصة يمكنها درس كميات كبيرة من الحبوب، وتم اختراع آلات أخرى تجعل من العمليات الزراعية أكثر سهولة وأغزر محصولا.

ومن ناحية التوسع الأفقى أى إنشاء حقول جديدة نجد أنه فى حين كانت مساحة الأراضى الزراعية فى كل أنحاء اليابان إبان عهد طويوطومى هيديوشى أى فى نهاية القرن السادس عشر نحو مليون وأربعمائة وتسعين ألف هكتار، فإن هذه المساحة تضاعفت فى بداية

القرن الثامن عشـــر إلى مليونين وتســـعمائة وأربعين ألف هكتار، أى منذ فترة جنروكو فى نهاية القرن الســـابع عشر وحتى فترة كيوهو وهى المدة من عام ١٧١٦م إلى عام ١٧٣٦م، أى أن هذه الزيادة الكبيرة حدثت فى أقل من نصف قرن.

وترجـــع هذه الزيادة الكبيرة إلى تنفيذ الباكفو لعدة مشـــاريع زراعية كبرى، وإنشاء أكثر من دلتا زراعية عند مصبات الأنهار، هذا إلى جانب إنشاء حقول جديدة بتخطيط جيد حول البحيرات والمستنقعات.

وفـــى الحقيقـــة أن كل هذه المشـــروعات لم تكن تجدى شـــيئا بدون فلاحـــين مجتهدين يبذلون كل جهدهم من أجل زيادة إنتاجهم الزراعى فلم يألوا جهدا من أجل اســـتصلاح الغابـــات القريبة من قراهم، وكذلك تمهيد الأراضى البور لتصبح صالحة للزراعة.

وإذا كان الفلاحـــون يبذلـــون جهدهم من أجل زيادة الإنتاج فلم يكن لهذا الجهد أن يثمر شيئا دون رأسمال يكون فى خدمة المشاريع الكبرى وتنفيذها، وكان الكثير من أموال هذه المشـــاريع تُضخ عن طريق الأغنياء من ســـكان المدن الكبيرة مثل إيدو وأوســـاكا وغيرها مـــن المدن، ولذلك سميت هذه المزارع بالحقول الجديدة المتعاقد عليها مع أغنياء المدينة.

ومـــع تطور أوضـــاع الزراعة بشـــكل عام ومـــع الإنتـــاج المتزايد من المحاصيـــل اســـتطاع الفلاحون بيـــع الفائض من محاصيلهـــم المختلفة والحصـــول على النقود التى لم تكن موجودة فى الريف قبل ذلك إلا فى أضيق الحدود، وظهرت أيضا فى الريف فئة من الفلاحين الذين يعملون بالتجارة اســـتطاعت أن تكنز الكثير من النقـــود التى أتاحت لها فرصة شراء أراضى الفلاحين الفقراء، وبذلك تضخمت ثرواتها، وقد كان لتطور

المدن القلاعية والمدن الساحلية التى تضم موانئ هامة مثل إيدو وأوساكا وتقدم أنماط الحياة لسكان هذه المدن تأثيره فى زيادة الطلب على كثير من المنتجات من مأكل وملبس التى تأتى معظمها من مواد زراعية، وتأتى الخضراوات الطازجة فى مقدمة هذه المواد مما تطلب زراعتها فى الريف المجاور لتلك المدن الكبرى، وعليه فقد اتسع نطاق هذا الريف رويدا رويدا، وإلى جانب ذلك فقد تطلب هذا الاتساع فى رقعة الأرض الزراعية إلى تطوير التقنية الزراعية سواء كان ذلك فى اختراع أدوات زراعية جديدة أو استنباط أنواع جديدة فعالة من الأسمدة، والأهم من ذلك أنه منذ عصر الجنروكو بدأت الباكفو فى تنفيذ مشاريع تخدم العملية الزراعية كما أسلفنا القول.

ومن أشهر الصناعات التى شهدت تطورا ملموسا فى عهد جنروكو تربية دودة القز لإنتاج الحرير الطبيعى وصناعة الأقمشة الحريرية، وذلك فى أكثر من مقاطعة فى كل أنحاء البلاد وكذلك تطورت صناعة الأقمشة القطنية نظرا للتوسع فى زراعة القطن وذلك لرخص سعره بالمقارنة بالأقمشة الحريرية ومناسبته لمعظم المواطنين، وكانت معظم الملابس حتى منتصف عصر موروماتشى (منتصف القرن الخامس عشر) تُصنع من الكتان، ولكن مع بدء زراعة القطن باليابان منذ تلك الفترة أصبحت معظم الملابس تصنع من القطن، وذلك لأن القطن له لمسة ناعمة دافئة على الجسم وكذلك يمكن صبغه بعديد من الألوان بسهولة.

كذلك تقدمت صناعة النبيذ، وكانت كميات ضخمة من الأرز تتجمع فى مدينة أوساكا من كل أنحاء اليابان ويتم تصنيعها فى مناطق عديدة فى هذه المدينة الكبيرة، وأصبحت منطقة إيتامى Itami تفتخر بأنها

تنتـج أكبر كمية من النبيذ فى اليابان، واشـتهرت كذلك ثلاث مناطق بمدينة كوبى بأنها تمد عاصمة الباكفو بحوالى ٦٠٪ من احتياجاتها من النبيذ هى نيشى نوميا وإيماتسو ونادا.

أمـا الصيد فـكان معظمه يتم بالقرب من السـاحل وليس فى عرض البحر، وكانت أهم أنواع الأسماك وأكثرها هى التونة والسـردين، وكان الصيد يتم بطريقتين:

الأولى : تعتمد على اسـتخدام السـنارة وكان يتـم بها صيد أسماك البنيت (نوع من التونة).

الثانية : تعتمد على الشبكة وكان يتم بها صيد السردين.

كذلـك كان يتـم صيد كميـات كبيرة لا بأس بها من سمك الشـبوط والاسقربوط وكان للصيد طرق معينة للإدارة، حيث كان هناك ملاك للشبك (Amimoto) ويتبعهم عدد كبير من صغار الصيادين (Amiko) وكذلك كان هنـاك عدد صغير من ملاك مراكـب الصيد الكبيرة (Funanushi) ويتبعهـم عدد كبير من المراكبيـة (Funako) الذين يقومون بقيادة هذه المراكب.

وشـهدت الحراجة تطورا سريعا وذلك للطلب الهائل للأخشاب من أجل الإنشاء حيث من المعروف أن اليابان منذ القدم تعتمد على أخشاب الغابات فى إنشـاء البيوت والقصـور وحتى المعابد، وفى منتصف عصر إيـدو والذى يمثله فترة جنروكو ومـا قبلها وبعدها بقليل زاد عدد تجار الجملة للأخشاب ووصلوا بنشاطهم إلى جزيرة إيزوتشى (هوكايدو).

وأشـهر الغابات فى اليابان موجودة فى مقاطعات أوارى (إيتشـى) وأكيتـا وناجانـو، وفى هـذه المقاطعات قطع تجار الجملة الأخشـاب

وتاجرو بها، واشـــتهر من بين الأخشـــاب سرو–كيسو وأرز أكيتا كذلك كانت تســـتهلك كميات كبيرة من الحطب والفحم كوقود فى المدن وقرى الضواحى.

ونظـرا لأهمية الملح فقد تطورت صناعتـــه بدرجة كبيرة وزاد إنتاجه بدرجـــة خاصة فى منطقـــة أكو (Ako) فى هاريمـــا (منطقة فى جنوب غرب محافظة هيوجو الحالية) واعتمدت صناعة الملح آنذاك على تقنية صناعيـــة عالية كانت تتطلب تكاليف باهظة، وكانت تدعى حقول ملح الشواطئ.

والتعدين أيضا شهد تطورا ملحوظا ليس فقط منذ عهد إيدو ولكن أيضا قبل ذلك منذ عصر الحروب (١٤٧٧م – ١٥٧٣م) وذلك تماشيا مع الزيادة على الطلب على ســـك النقود فتقدمت تقنية استخراج المعادن وتنقيتها، وازدهرت عمليات اســـتخراج الذهب والفضة من مناجم دو للذهب (فى محافظة نيجاتا) وأيوامى (غربى محافظة شيمانى) للفضة ومنجم تاجيما إيكونـــو (Tajima Ikuno) للفضة (محافظة هيوجو) وغيرها من المناجم التى اشتهرت بإنتاج الذهب والفضة فى اليابان منذ القرن الرابع عشر، ولكـــن هذا الإنتاج ظل يتناقـــص تدريجيا كما ذكرنا آنفا، ومنذ منتصف القرن السابع عشر أخذت الباكفو تهتم باستخراج النحاس، وتم استخراج كميات كبيرة من خام النحاس من منجم أشيئو الذى تم اكتشافه فى فترة كيتشو (حوالى ١٥٩٦م – ١٦١٥م) وقد تحدثنا عنه وعن مشاكله البيئية فى كتابنا السابق، وغيره من مناجم النحاس وذلك من أجل سد حاجة الدولة من النقود النحاسية وكذلك للتصدير.

ومن تراب الحديد الذى اكتشـــف فى منطقة إيزمو Izumo تم صنع

الحديد الصلب الذى بالتالى استخدم فى صنع السيوف والآلات الزراعية والصناعية. أما الحديد العادى فقد تم صنعه من حجر الحديد وتم تصنيعه لأول مرة فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو فى أفران عالية تستخدم الفحم لصهر الحديد وذلك فى منطقة كاما إيشى (مدينة تقع فى شرق محافظة إيواتى)، أما الفحم الحجرى فقد تم استخراجه فى منطقة تشيكو هو Chikuhō (محافظة فوكوأوكا).

٤- ثقافة جنروكو :

كانت ثقافة الجنروكو هى أهم ما ميز هذا العصر، وهى تلك الثقافة الرفيعة التى ازدهرت فى المدن الثلاث الكبرى كيوطو وأوساكا وإيدو فى الفترة ما بين عامى ١٦٨٨م و١٧٠٤م، وكان فى خلفية هذه الثقافة عدة عوامل ساعدت على تطورها وازدهارها، وهذه العوامل يأتى فى مقدمتها جهود الشوجون الخامس طوكوجاوا تسونايوشى وسياسته من أجل تطوير العلوم والثقافة. وكذلك تقدم المدن الثلاث الكبرى والنشاط الكبير الذى حدث فى مجال النشر والطباعة وغيرها.

وفى الحقيقة أن معظم الأعمال الأدبية الشهيرة التى تنتمى لعصر إيدو والتى ما زالت تقرأ حتى يومنا هذا أنجزت فى فترة جنروكو. فقد كتب الأديب إيهارا سايكاكو Ihara Saikaku (١٦٤٢م – ١٦٩٣م) مجموعة قصص تدعى Ukiyo Zōshi تناول من خلالها بمهارة شديدة نقد المجتمع اليابانى آنذاك، وكذلك التعبير عما يدور بصدور الناس ومشاعرهم بصدق شديد، وتناول أيضا فى قصص أخرى حياة سكان المدن وأحوالهم، والأهم من ذلك أنه قام بتشريح طبقات المجتمع اليابانى

الأربعة والتى سادت طوال عصر إيدو تقريبا، وقد ذكرناها آنفا ولكن للتذكير بها ، فهى المحاربون ثم المزارعون ثم الحرفيون أو الصناع ثم يأتى فى ذيل القائمة التجار. وقد قُسمت هذه الطبقات بهذا الترتيب منذ أوائل عهد إيدو على أساس مدى أهمية وسمو مهنة صاحبها فأتى التجار فى ذيل القائمة على اعتبار أنهم أقل الطبقات بذلاً للجهد والعطاء وذلك بصرف النظر عن فقرهم أو ثرائهم. ويقول سايكاكو فى إحدى قصصه، «لا يتغير تفكير أحد من الناس وأسلوبه فى الحياة، فالذى يشهر سيفه فهو محارب، والذى يتقلد إبوشى Eboshi(قبعة خاصة برهبان المعابد الشنتوية) والذى يرتدى الكيمونو الأسود فهو راهب فى معبد بوذى، والذى يقبض بيده على فأس فهو فلاح والذى يستعمل الشاكوش فهو حرفى، والذى معه صوربان (آلة يدوية للحساب) فهو تاجر والمهم أن الكل يؤدى عمله باجتهاد»، هكذا فصل إيهارا سايكاكو بين الطبقات الأربعة إلى جانب ذكره لطبقة أخرى هامة وهى طبقة الرهبان سواء البوذيين أو الشنتويين . ويؤكد سايكاكو من خلال أعماله على أن قيمة الشخص لا تنبع من حسبه أو نسبه ولكنها تأتى من ما يملكه هذا المواطن من ذهب وفضة ، وبالطبع يقصد سايكاكو هنا التجار الذين كانوا أغنى طبقات المجتمع فى فترة جنروكو. وبفضل الروح الوثابة والواثقة بنفسها استطاع سكان المدن من التجار إعطاء دفعة قوية للفنون وبشكل عام سواء كانت فنون جميلة أو مسرح وبذلك ولدت ثقافة المدنيين لعصر جنروكو الزاهر . ومن الجدير بالذكر أن سايكاكو لو كان أول من بدأ فى كتابة قصص ال Ukiyo Zōshi فى عام ١٦٨٢م واستمر هذا النوع الفريد من القصص يكتب حتى عام ١٧٧٢م أى ما يقرب من تسعين عاما .

ولم يتناول هذا النوع من القصص حياة وأحوال التجار فقط بل تطرق إلى نوعيات أخرى كثيرة من سكان المدن الكبيرة وعلى الأخص مدينة أوساكا ، مثل عازفى الشاميسن (آلة تشبه الربابة) والمحاربين وقصص الأبناء والبنات والأعمام والمعشوقات وغير ذلك من أنماط البشر فى ذلك الزمان، هذا إلى جانب قصص الأشباح وغيرها من القصص المرعبة.

ويعد الشـاعر ماتسو أو باشو Matsuo Bashō (١٦٤٤م – ١٦٩٤م) من أشهر شـعراء الهايكو، وهو أحد أشكال الشعر اليابانى القديم الذى كان يتسـم بالفكاهة، ولكن باشـو استطاع أن يفتح لهذا اللون من الشعر طريقا جديدا يتسم بعمق الفكرة واحتواء الشعر على فلسفة ذات جدوى. وذلك بعد أن درس باشـو هذا الشعر دراسة وافية عندما رحل من بلدته فى محافظة ميى كين (Mie Ken) إلى إيدو، وبعد أن بلغ الأربعين من عمره ترك حياة الاسـتقرار واتجه إلى مواصلة رحلاته عبر البلاد، وأثناء تلك الرحلات كتب مذكرات فى الرحلات رائعة تسـمى «الطريق الضيق البعيـد» فـى عام ١٦٨٩م أى فى العام الثانى مـن فترة جنروكو، وهذه المذكرات هى التى تحوى أشهر أشعار الهايكو، وفى عام ١٦٩٤م (٧ من جنروكو) كتب بيت شعر الهايكو الشهير « لقد أمرضنى الترحال وجف الحلم» ثم توفى وهو فى عمر الحادية والخمسين.

أمـا شكسـبير اليابان تشيكاماتسـو مـون زايمـون Chikamatsu Monzaemon (١٦٥٣م – ١٧٢٤م) فقـد اشـتهر بكتابة مسـرحيات الجوروري Jōruri ومسـرحيات الكابوكى وكذلك مسرحيات Kyōgen وتميز تشيكاماتسـو باستخدام المشاعر الإنسانية بمهارة شديدة فى كتابة مسـرحياته، وهو يمثل مع الأديبين السابق ذكرهما أضلاع المثلث الذى

يعتبر الأســاس لثقافة الجنروكو. ومن أهم مســرحياته «منتحرى صونى زاكى» وهى مســرحية كتبها فــى عام ١٧٠٣م (١٦ مــن جنروكو) وقد اتخذ من حادث حقيقى انتحر فيه اثنان من المحبين فى أوساكا حبكة المســرحية. وكتب أيضا مسرحية «بوســطجى العالم الآخر» وهى أيضا تتخذ من قصة حب حبكة لها.

أمــا النواحى العلميــة والفكرية فقــد قامت على عاتــق المحاربين فتخصصوا فيها، وفى حين أخذ ســكان المدينة من التجار على عاتقهم إعطــاء الحياة نكهــة من المتعة فكانــت ثقافتهم تقوم علــى الرفاهية، فاشــتروا بأموالهم التى اكتسبوها أشــياءً ثمينة وأكلوا طعاما شهيا وبين الحين والحين كانوا يذهبون لدور المســرح ليتمتعوا بمشاهدة مسرحيات الكابوكــى والجورورى والكيوجن، وهى فى معظمها مســرحيات هزلية تجلب المتعة والفرح إلى مشاهديها.

أما العلوم فى عصر إيدو فقد قامت على أساس التعاليم الكنفوشيوسية وكان ذلك بسبب أن هذه التعاليم تجعل من الشوجون قمة المجتمع، وهى كذلك تتيح للشــوجون وللطبقة الحاكمة العليا امتيازات عديدة تجعلهم يقبضــون بيد من حديد علــى الفئات الأخرى مــن المجتمع. وقد كان الشــوجون الخامس تسونايوشى والذى يقع فى عصره فترة جنروكو التى نتحدث عنها – يحب العلم وعلى الأخص العلوم الكنفوشيوســية وكان يقــرأ العديد من كتبها– وكان كذلك يســتمع بإنصات إلى محاضراتها. وكان إلى جانب ذلك يجمع الدايميوات والمحاربين ويلقى بنفسه عليهم المحاضرات فى الكنفوشيوسية. وفى عام ١٦٩١م (٤ من جنروكو) أنشأ تسونايوشــى معبدا رائعا لتبجيل كونفوشيوس. وفى هذا المعبد أو القاعة

الكبرى كانت المحاضرات عن الكونفوشيوسية تتم على يد علماء كبار، وقد حازت الكونفوشيوسية الجديدة على حماية خاصة من الباكفو، ولذلك أخرجت هذه التعاليم الكثير من العلماء، وكان السبب الرئيسى لحماية الكونفوشيوسية الجديدة (Shushigaku) من قبل الباكفو أنها كانت تدعو لدعم المجتمع الإقطاعى والذى كانت تقوم على دعائمه حكومة باكفو إيدو العسكرية.

وقد عين الشوجون تسونايوشى حفيد المعلم الكنفوشى الرسمى للباكفو هاياشى رازان (١٥٨٣م – ١٦٥٧م) وهو هاياشى هوكو Hayashi Hōkō (١٦٤٤م – ١٧٣٢م) فى وظيفة رئيس الجامعة الكونفوشيوسية، هذا العالم قام بنقل مدرسته لتكون بجانب قاعة يوشيما المقدسة حتى تكتمل الصورة البراقة للكنفوشيوسية وبعد ذلك لمدة طويلة من عصر إيدو احتلت هذه العائلة هذه المكانة الرفيعة من كونها راعية للعلم والتعليم.

وقد كان لتطور العلوم الكونفوشيوسية أثره الكبير فى تطور العلوم الأخرى، وذلك لاعتماد الأفكار الكنفوشيوسية على الواقع والموضوعية وليس على الأساطير كما فى الديانات الأخرى وخاصة الشنتوية، ففى علم التاريخ اعتمد على وثائق مؤكدة، وتم الأخذ بأوضاع وأحوال مؤكدة لوصف التاريخ، وقد تم إنجاز عملين تاريخيين عظيمين خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر وأحدهما هو «تاريخ اليابان العظمى» بدأ فى كتابته حاكم مدينة ميتو وهو طوكوجاوا ميتسوكونى Tokugawa Mitsukuni (١٦٢٨م – ١٧٠٠م) وكان فى ذات الوقت عالم كنفوشى.

كذلك أدلى بدلوه فى مجال التاريخ العالم الكنفوشى والسياسى فى ذات الوقت أراى هاكوسيكى Arai Hakuseki (١٦٥٧م – ١٧٢٥م)

فكتب (تاريخ صعود وسقوط الساموراى) وذلك بناء على طلب من الشوجون السادس طوكوجاوا إيى نوبو (Ienobu) (١٦٦٢م – ١٧١٢م) وهذا الكتاب يعتبر من الكتب الرائدة فى نقد التاريخ اليابانى.

وفى مجال العلوم الطبيعية تطورت العلوم التطبيقية مثل العلوم الزراعية والطبية تطورا ملموسا، أما علم الطبيعيات (النباتات والحيوانات) فهو فى الأساس يعتمد على الأعشاب لتكون مصدرا للدواء، وقد أظهر هذا العلم تطوراً فى الأبحاث على فعالية الأدوية المعتمدة على مصادر نباتية وحيوانية ومعدنية، وكان للعالمان الكبيران كايبارا أكيكن Kaibara Ekiken (١٦٣٠م – ١٧١٤م) وإينو جاكوسوى Inou Jakusui (١٦٥٥م – ١٧١٥م) دور كبير فى تطور هذا العلم، فقد كتب الأول كتابا أسماه «أعشاب اليابان» والآخر كتب كتابا أسماه «إحصاء مختلف الأشياء».

وفى العلوم الزراعية شرحت المجموعة الزراعية، التى أنجزها عالم الزراعة ميازاكى ياسوسادا Myazaki Yasusada (١٦٢٣م – ١٦٩٧م) الكثير من التقنيات الزراعية وعلى الأخص طريقة زراعة المحاصيل التجارية، وتم استخدام هذه المؤلفات بشكل موسع بين الفلاحين اليابانيين.

وفى علم الحساب الذى كان يعتمد على الطرق الحسابية المأخوذة عن الصين تطورت تطورا سريعا الطرق الحسابية اليابانية على يد علماء مثل يوشيدا ميتسويوشى Yoshida Mitsuyoshi (١٥٩٨م – ١٦٧٢م) الذى أنجز أول كتاب فى علم الحساب فى اليابان وذلك فى عام ١٦٢٧م (Jinkoki). وقدم عالم الرياضيات سيكى تاكاكازو Seki Takakazu

إنجـازات كبيرة فى علم الجبر وحسـاب التفاضـل والتكامل، وأجرى أبحاثا عديدة فى كيفية قياس مساحة الدائرة، ويعتبر تاكاكازو من العلماء التى تفخر بهم اليابان، ولم يشـذ علـم الفلك والتقويم عن باقى العلوم، فقد أخذ أيضا عن الصين ولكنه أظهر أيضا تطورا كبيرا فى عصر إيدو، وخاصـة وأن التقويم والنتائج اسـتخدمت بعمق فـى العمليات الزراعية وبالطبـع كان لعلم التقويم علاقته الوثيقة بعلـم الفلك، ولكن الروزنامة التى اسـتعملت منذ عهد هيان كانت على النسق الصينى التى لم توافق حركة الكواكب، وبالتالى لم تعد صالحة للاستعمال فى اليابان، وهنا قام العالم الرياضى والفلكى شـيبوكاوا شون كاى Shibukawa Shunkai (١٦٣٩م – ١٧١٥م) باختراع تقويم أول روزنامة جديدة فى عام ١٦٨٤م يناسب اليابان، وتم إلغاء التقويم الذى كانت تستعمله اليابان منذ عهد هيان (٧٩٤م – ١١٨٥م).

أما فى مجال الدراسـات الأدبية فقد بـدأ البحث الحقيقى فى هذا المجـال فى منتصف عصر إيـدو وازدهر فى فـترة جنروكو، ففى فترة جنروكـو ازدهـرت روح البحث فى الأعمال الأدبيـة القديمة مثل قصة جنجى ومذكرات طوسـا وغيرهما من الأعمال الشـهيرة وكذلك ازدهرت حركة إحداث ثورة فى شعر الوكا على يد الساموراى المتقاعدين والذين أصبحـوا من عامة الشـعب، فقـد انتقد طودا موصـوى Toda Mosui (١٦٢٩م – ١٧٠٦م) الكثـير من شـعر الوكا وذلك فـى مجموعته التى أصدرها عام ١٧٠٠م (١٣ من جنروكو) وفى هذه المجموعة النقدية انتقد طودا احتكار عائلات بذاتها تناقل أشـعار المجموعة الشـعرية القديمة دون غيرهـم من النـاس، كذلك قـام العالم والشـاعر كيتامورا كيجين

Kitamura Kigin (١٦٢٤م – ١٧٠٥م) بكتابة شروح مبسطة للأعمال الأدبية القديمة الكبرى مثل قصة الأمير جنجى ومذكرات أدبية عديدة. وقام عالم الأدب الكلاسيكى شيموكوبى ناجارو Shimokobe Nagaru (١٦٢٧م – ١٦٨٦م) بشرح أقدم مجموعة شعرية فى اليابان وتسمى مانيوشو بطريقة سهلة على القارئ اليابانى العادى آنذاك، وهذا اللغوى استطاع الحصول على مساعدة حاكم مقاطعة ميتو طوكوجاوا ميتسوكونى (١٦٢٨م – ١٧٠٠م) والذى كان محبا للعلوم والآداب، وأدلى العالم اللغوى كيتشو Keichu (١٦٤٠م – ١٧٠١م) بدلوه أيضا فى دراسة مجموعة شعر المانيوشو والتى تضم أربعة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر، ولذلك فلا عجب أن يتناول البحث فى هذه المجموعة الشعرية الضخمة العديد من الباحثين والأدباء فأصدر هذا اللغوى النابغة سلسلة طويلة من أجل شرح هذه المجموعة الضخمة ضمت ٤٩ جزءًا وذلك فى عام ١٦٩٠م (٨ من جنروكو) ثم أهداها لمحب الأدب والأدباء ميتسوكونى امتنانا منه لمساعدته للأدباء والعلماء ولتشجيعه للأعمال الأدبية والنقدية.

وهكذا ومن خلال استعراضنا لمختلف الأنشطة الحياتية فى عصر جنروكو سواء كانت زراعية أو صناعية أو تربوية أو ثقافية نجد أن عصر الجنروكو ازدهرت فيه هذه النواحى إلى حد كبير وأبقى العديد من العلماء والأدباء والساسة على كثير من الإنجازات التى ميزت هذه الفترة كثيرا عن الفترات الأخرى. ولذلك نجد أن ما ذكره مساعد الإمبراطور (كانباكو) كونوى ماطوهيرو Kone Motohiro (١٦٤٨م – ١٧٢٢م) فى مذكراته بعد وفاة الشوجون تسونايوشى من أن عصر هذا الشوجون الذى امتد لثلاثين عاما كانت كلها سنوات سوداء بالنسبة لليابانيين فيه

تجنى على هذا العصر فقد شهدت فترة الجنروكو على الأقل ازدهارا فى مختلف نواحى الحياة، هذا ما يجعل شـهادة هذا السياسـى مجروحة إلى حد كبير.

٥- ساموراى أكو أو الأوفياء Akougishi :

توفى الشـوجون طوكوجاوا تسونايوشـى فى عام ١٧٠٩م وقبل ذلك بخمس سـنوات فقط انتهت فترة جنروكو فتقاربت النهايتان ولم يشـأ هذا العصر الغريب – نقصد عصر تسونايوشـى – أن ينتهى دون نهاية مأسـاوية غريبة كما بدأها هذا الشـوجون الغريب الأطوار بأشياء غريبة مثل قـراره بحماية الحيوانـات والمخلوقات الأخرى من غير الإنسـان فكـدر بذلك حياة اليابانيـين آنذاك، والحادثة التـى اختتم بها عصر الجنروكو أحداثه قبل نهايته بعام واحد أى فى عام ١٧٠٣م هى الحكم علـى ٤٧ من أتبـاع حاكم مقاطعة أكو أو Akou (جنوب غرب محافظة هيوجو) بالانتحار على طريقة الهاراكيرى وذلك لقتلهم كيرايوشـى ناكا Kirayoshi Naka (١٦٤١م – ١٧٠٣م) الذى كان يشغل منصب يشبه الآن كبير ياوران الباكفو ومسـئول المراسـم والطقوس فيها، وذلك آخذا بالثأر لسـيدهم أسانو ناجانورى حاكم منطقة أكوأو Asano Naganori (١٦٦٧م – ١٧٠١م) وكان ناجانـورى قد عُـين فى إبريل عام ١٧٠١م فى وظيفة مسـئول الاسـتقبال المباشـر فى البلاط الإمبراطورى، وطلب ناجانورى من كيرايوشـى أن يدربه على أداء المراسـم حيث إن الأخير عمل فى وظيفة ياوران الإمبراطور وكذلك كممثل للشـوجون فى مختلف المناسـبات ، ولكن كان رد كيرايوشى على طلب ناجانورى فظا فغضب

ناجانـورى وأخـرج خنجره من غمده وجـرح كيرايوشـى. وعليه أمر كيرايوشـى ذو السـلطة الأعلى غريمه ناجانورى بأن يقتل نفسـه على طريقة الهاراكيرى أى بشـق بطنه بالخنجـر، ولم يكتف بذلك بل أمر بمصادرة أملاكه كلها، وقد أدهش وأحزن هذا الحادث سكان مدينة أيدو وكذلك كل اليابانيين آنذاك.

وردا علـى قتـل ناجانورى هاجـم ٤٧ من أتباعه الذيـن جاءوا من منطقة أكوأو قصر كيرايوشى فى أيدو وقتلوه، ولكن بعض المراجع تذكر أن عـدد مـن قاموا بالهجوم علـى القصر كانـوا ٤٦ محاربا فقط وليس ٤٧ وذلك لأن أحدهم يدعى تراسـاكا نوبويوكى Terasaka Nobuyuki (١٦٦٥م – ١٧٤٧م) هرب قبل تنفيذ عملية الهجوم على القصر واغتيال صاحبـه، ولذلك نجد أن سـنة وفاتـه تختلف كثيرا عـن وقت إعدام السـاموراى الآخرين، وهكذا اسـتطاع هؤلاء الساموراى الأوفياء لسيدهم الأخذ بثأره.

ولم تلبث أخبار هذه الحادثة أن انتشرت بسرعة عن طريق الصحف الطينية التى كانت تسـتخدم آنذاك، وعندما عرف أهل أيدو ما حدث أثنى الكثير منهم سـواء كانوا من السـاموراى أو مـن المواطنين على ما فعلـه هؤلاء المحاربون الأوفياء لسـيدهم، كذلك مجد المفكرون والكتاب الكونفوشيوسـيون هـذا الفعل الشـجاع لمحاربى أكـوأو وكتب الأديب موروكيـو صو Muro Kyūsō (١٦٥٨م– ١٧٣٤م) قصة هؤلاء المحاربين الأوفيـاء ممجدا فعلتهم فى عمل أدبى اسمه «سـجلات محاربى أكوأو الأوفياء».

وكان مـن بين أعضـاء حكومة الباكفو أيضا مـن يتعاطف مع هؤلاء

المحاربين الأوفياء، ولكن إذا ما كان ما أقدم عليه هؤلاء المحاربون من الناحية الأخلاقية عملا يدل على الولاء والوفاء لمعطيات ذلك الزمان، إلا إنه من الناحية القانونية لم يكن مقبولاً، حيث أُعتبروا جميعا متهمين بإحداث فوضى وصخب فى مدينة إيدو، وظلت حكومة الباكفو فى حيرة من أمرها فى كيفية التصرف مع هؤلاء المحاربين حتى صدر الحكم فى فبراير من عام ١٧٠٢م بأمرهم بقتل أنفسهم على طريقة شق البطن.

وبعد اثنى عشر يوما فقط من موت هؤلاء المحاربين الشجعان تم عرض هذه الحادثة فى شكل مسرحية عرضت فى مسرح ناكامورا بالعاصمة إيدو، ولكن سرعان ما تم وقف هذا العرض بعد ثلاثة أيام فقط، وقد أدلى بدلوه فى تصوير هذه الحادثة الكاتب المسرحى الشهير تشيكاماتسو مونزايمون فى شكل مسرحية من نوع الكابوكى وكذلك الكاتب المسرحى تاكيدا إيزمو Takeda Izumo (١٦٩١م – ١٧٥٦م) ساهم بكتابة مسرحية من نوع الجوروري تخلد هذه الواقعة ونالت كلتا المسرحيتين إعجاب أهالى إيدو كثيرا، ولكن كلا الكاتبين خشيا من غضبة الباكفو فجعلوا أحداث المسرحيتين تجرى فى عصر موروماتشى الذى يسبق عصر إيدو، وقد تم كتابة عدة مسرحيات من نوع الكابوكى والجوروري اتخذت من أحداث واقعة أخذ الـ ٤٧ محاربا لثأر سيدهم مادتها، وقد سميت هذه المسرحيات بـ «خزينة ولاء عصر جنروكو» Genroku Chūshingura.

وهكذا انتهى عصر الجنروكو وفترة حكم الشوجون الخامس طوكوجاوا تشونايوشى بمأساة ظلت تشغل اليابانيين لوقت طويل.

٦ - تصحيح المسار على يد الشوجون ومستشاره :

أما الشـوجون فهو الشـوجون السـادس طوكوجاوا إينوبو (Ienobu) (١٦٦٢م – ١٧١٢م) الذى تولى منصب الشوجونية بعد وفاة عمه تسونايوشى وذلـك مـن عام ١٧٠٩م وحتى عام ١٧١٢م أى لمـدة قصيرة أقل من أربع سنوات، وهو ابن تسونا شيجى Tsunashige (١٦٤٤م – ١٦٧٨م) الذى توفى ولم يزل فى الرابعة والثلاثين من عمره، وكان حاكما على مقاطعة كوفو (تقع فى منتصف محافظة ياماناشـى) وعليـه أصبح ابنه إيينوبو حاكما على كوفو ولم يزل فى السادسة عشرة من عمره، وفيما بعد أصبح يعرف بوزير كوفو، ولأن اشـوجون تسونايوشى لم يكن له عقب فقد تم انتقـال إيينوبو إلى الجناح الغربى فى قلعة إيدو، ووجود سـليل أسـرة طوكوجاوا فى هذا الجناح يعنى أنه أصبح الوريث الشـرعى للشـوجون لأنه فى حالة وفاة الشـوجون الحالى يصبح على الفور الشوجون الجديد وقد حدث هذا مع إيينوبو فى يناير من ١٧٠٩م.

وهذا الشـوجون السـادس كان محبا لشـعر الوكا وقارئا لمسرحيات النو (نوع من المسرحيات كانت تغلب عليها الأحداث الحزينة) وكذلك كان ضليعاً فى العلوم الكونفوشـية، وكان أسـتاذه فى هذه العلوم العالم والسياسى الفذ أراى هاكوسيكى Arai Hakuseki (١٦٥٧م – ١٧٢٥م) ويكفـى أن نعـرف أن أراى قد ألقى ما يزيد على ألف ومائتى محاضرة على إيينوبـو منذ عام ١٦٩٢م (٦ من جنروكو) وحتى وفاة إيينوبو عام ١٧٠٩م لندرك مدى تأثير هذا العالم الكنفوشـى فى الشـوجون إيينوبو سـواء من الناحية العلميـة والثقافية أو فى الناحية السياسـية واتخاذ القرارات.

ولم يكن تأثير أراى هاكوسيكى فى إيينوبو من فراغ فقد كان عالما فذا بحـق وأفردت له صفحات عديدة فى كتب التاريخ نظرا لعلمه الغزير، ففى الثالثة من عمره استطاع كتابة الحروف اليابانية الصعبة، وفى سن التاسعة كان والـده يكلفـه بالتدريب على كتابة عدد كبـير من حروف أو بالأحرى من الأشـكال الصينية المعقدة كواجب يومى، وكان يسكب المياه على رأسه حتـى لا ينـام دون حفظها، وقد زاد اهتمامه بالعلـم واجتهاده فيه بعد أن وصل إلى سن الثانية عشرة حينما ترك والده الخدمة الحربية (Ronin) لدى بيت حاكم مقاطعة كورو رى Kururihan (تقع فى محافظة تشيبا) ومن ثم ساءت أحوال والده المادية مما استلزم من الصبى هاكوسيكى اجتهادا زائدا، وفى هذه الأثناء عرض عليه تاجرا غنيا يدعى كاوامورو زويكن Kuwamuru Zuiken (١٦١٨م – ١٦٩٩م) أن يزوجه حفيدته فى مقابل مساعدته ماديا، ولكن الصبى المعتز باجتهاده وعلمه رفض هذا العرض المغرى الذى لو عرض على أى شخص آخر لما رفض على الإطلاق.

وفى سـن السادسـة والعشـرين التحق بالخدمة كسـامورای بدائرة المستشار هوتًا ماساطوشى Hotta Masatoshi (١٦٣٤م – ١٦٨٤م) وظل يعمل فى خدمة هذا المستشـار الكبير حتى تم اغتياله فى عام ١٦٨٤م، وخـلال خدمـة أراى كمحارب عند هوتًا لم يـترك اجتهاده العلمى بل درس الكنفوشـية الجديدة على يد العالم الكونفوشـى كينوشـيتا جون آن Kinoshita Junan (١٦٢١م – ١٦٩٨م) وأصبـح أراى أهـم تلميذ من تلاميذ جون آن العشـرة (Mokumon no Jittetsu) وبتوصية من العالم جون آ، سـتطاع أراى الدخول فى خدمة طوكوجاوا تسوناطومى

(إيينوبو فيما بعد) . ولكن بعد النشـاط السياسى الذى أظهره أراى كما سـيجئ الحديث فى عهد إيينوبو الذى لم يدم أكثر من أربع سـنوات، استقال من جميع مناصبه وساء حظه كثيرا، إلا إنه على الرغم من ذلك لم يترك الكتابة فكتب سيرته الذاتية وأنجز كتبا أخرى فى التاريخ وعلم اللغة وكذلك أبحاثا فى أحوال الغرب.

وهكذا ظهرت شخصيتان بارزتان فى تاريخ الباكفو بعد وفاة الشوجون الخامس تسونايوشى، واستمر نشاط هاتين الشخصيتين لفترة قصيرة إلى حـد كبـير كما ذكرنا آنفا إلا إنه على الرغـم من ذلك كانت فترة مثمرة جدا واتخذت فيها قرارات هامة للغاية وهى كالتالى:

أولا : كانت أول فرامانات الشوجون الجديد أيينوبو هو إلغاء قانون حمايـة الحيوان وغـيره من المخلوقات فى ينايـر ١٧٠٩م أى فى نفس الشـهر الذى توفى فيه تسونايوشى، ذلك القانون الذى سبب للمواطنين الكثير مـن الكدر والمتاعب، وقد أحدث هذا الإلغـاء الكثير من الحبور والسـعادة فى قلوب النـاس الذين اعتبروا هذا الإجـراء علامة على أن سياسـة الشـوجون الجديد سـوف تكون صالحة ومغايرة لسياسة سلفه تسونايوشى، ومن الجدير بالذكر هنا أن إيينوبو أصدر هذا القرار بمحض إرادته ولم يكن تأثير المستشـار أراى هاكوسـيكى قد ظهر بعد حيث إن ظهوره وتأثيره فى سياسـة الدولة كان بعد أن تولى منصبه فى يونيو فى نفس العام (١٧٠٩م).

ثانيا: بعد أن تولى هاكوسيكى منصب المستشار بدأ فى إعداد تعديل فـى قانون التحكم فـى المحاربين، والحقيقـة أن عملية تعديل وتغيير هذا القانـون كانت تتم دائما مع تغيير الشـوجون، ففى إبريل ١٧١٠م

طلب الشوجون إييئوبو من مستشاره إعداد مسودة لتعديل قانون المحاربين بالتوازى مع إصلاح السياسة الفاسدة التى كان يطبقها الشوجون السابق، ولكن الجديد فى قانون المحاربين هذه المرة كان فى الشكل والمضمون، فمن الناحية الشكلية تم استخدام حروف الكانا اليابانية بدلا من الأشكال الصينية التى كانت مستخدمة منذ القدم فى كتابة الفرامانات والتقارير والمراسلات الحكومية، ومن ناحية المضمون نجد التغيير واضحا مثلا فى المادة الأولى من القانون التى تقول إنه يجب تحديد المبادئ التى يسير عليها الناس وكذلك يجب تصحيح العادات السيئة، وفى المادة الثانية نجد القانون يؤكد على ضرورة بذل الدايميوات كل جهدهم من أجل سياسة تدعو لإزالة كل أسباب التذمر والغضب والمتاعب التى لدى المواطنين، وفى المادة الثانية عشرة نجد أن القانون يؤكد على أن كل فرد عليه أن يوفق بين الرفاهية والتقشف كل حسب وضعه الاجتماعى والمادى، وهكذا نجد أن المادة الأولى والمادة الثانية عشرة تعتمدان على الأفكار الكنفوشيوسية التى تحترم الطقوس وكذلك تؤكد على ضرورة التمييز بين الأوضاع الاجتماعية للناس، وأكد القانون الجديد أو بالأحرى التعديل الجديد لقانون المحاربين من خلال المادة الثانية على الاهتمام الشديد بالسياسة الرحيمة بالمواطنين والتزام الموظفين العموميين بهذه السياسة، وكذلك على إلزام رؤساء الموظفين العموميين بهذه السياسة، وكذلك على إلزام رؤساء الموظفين العموميين بحماية الأخلاق والمبادئ العامة.

ثالثا: انعكست السياسة الجديدة للشوجون السادس والتى اعتمدت على أفكار الكنفوشية الجديدة على علاقة اليابان على جارتها كوريا

وطريقــة المعاملة مع وفودها لليابان، وكانت أهم التغييرات التى حدثت هى ضرورة مخاطبة الشوجون فى الخطابات الرسمية بلقب «ملك اليابان» وليس «عظيم مملكة اليابان» وأصبحت تلك المشــكلة هى إحدى المشاكل التــى واجهتها الدولة، وكان هناك تحول آخر يتعلق بالفكر الكنفوشــى وهــو طريقة معاملة الوفود وضرورة التوفير فى النفقات التى تصرف على هذه الوفود القادمة لليابان.

رابعــا: من أهــم التحديات التى واجهــت أراى هى عملية إصلاح الفساد المالى التى ورثها الشوجون السادس إيينوبو عن سلفه تسونايوشى، وكانت أهم ما يمثله هذا الفســاد هو النقود المزيفة ســواء كانت ذهبية أم فضية، وكان المســئول عن عملية التزييف هذه أوجى وارا شيجى هيدى Ogiwara Shigehide (١٦٥٨م – ١٧١٣م) وكان فى منصب يوازى وزير الخزانة، وقد تسبب هذا الرجل منذ إجراءه لإعادة سك العملة فى ارتفاع الأســعار مما جعل عامة الشعب يعانون أشد المعاناة، بل إنه كان يأخذ الرشــاوى من التجار عند كل مرة كان يقوم فيها بســك العملة وهذا كله سبب ضيقا شديدا للمستشار آراى.

فقــد كان أراى يــرى أن معظم المشــاكل الاقتصاديــة التى تمر بها البلاد كانت بســبب النقود المزيفة والسيئة الصنع التى صنعت فى فترة جنروكــو، وكان يريد أن تعود النقود المتداولة فــى جودتها مثل النقود التى صنعت فى فترة كيتشو Keicho (١٥٩٦م – ١٦١٥م) أى قبل نحو قرن مضى من فترة جنروكو، ولذلك شــدد أراى فى مواجهته ضد أوجى ورار حتى استطاع إقصاءه عن منصبه قبل شهر واحد من وفاة الشوجون إيينوبو وذلك فى أكتوبر ١٧١٢م. ولكن بعد أن اســتطاع أوجى وارا أن

يجمع رشـاوى ضخمة بلغت مائتين وسـتين ألف ريو. ولكن برغم كل هذا فلم تؤدى هذه الإجراءات الإصلاحية من قبل أراى هاكوسـيكى إلى إنعاش اقتصاد الباكفو. وكذلك لم تجلب الاستقرار لحياة عامة الشعب، ذلك لأن الدقة فى صنع وسك العملة وجعلها ذات جودة عالية أدى إلى قلة كميتها بالسـوق فأعاق ذلك حركة التداول فى العملة، وأدى الكساد إلى معاناة شـديدة للمواطنين. وهنا ظهر التسـاؤل عن مدى فاعلية عالم قدير مثل أراى فـى العملية الاقتصادية، وهل كان أراى أفضل وأجدى لاقتصاد البلاد من رجل يفهم جيدا اقتصاديات السوق فاستطاع فى فترة من الفترات إنقاذ الباكفو من الإفلاس.

خامسا : أما المشكلة الأخرى والأخيرة التى أقضت مضجع المستشار أراى فـى أواخـر عهده بالمستشـارية هـى كيفية التحكم فـى التجارة الخارجية بميناء ناجاساكى، ففى هذه الفترة كانت التجارة مع كل من هولندا والصين تكلف اليابان كميات ضخمة من الذهب والفضة والنحاس كانت تصدر خارج البلاد مما يعنى إفقاد اليابان لثروتها بشكل واضح.

وقـد أجرى أراى فحصا بنفسـه عن كمية الذهـب والفضة التى تم تصديرهـا خارج اليابان خلال المائة عـام الأولى من عصر إيدو فوجد أن ربـع الذهب الذى تمتلكه اليابان وثلاثـة أرباع الفضة قد تم تصديرها، ووجـد أنه إذا اسـتمر تصدير الذهب والفضة بنفـس هذه المقادير خلال المائة عام التالية من هذا العصر فهذا يعنى أن اليابان سوف تفقد كل ما لديها من هذين المعدنين النفيسين، ولذلك رأى أراى أنه لابد من اتخاذ إجراء معين.

وتلخص هذا فى إصدار ما عرف بـ «فرمان ناجاساكى الجديد» وطبقا لهذا الفرمان تم تحديد عدد السفن التجارية الأجنبية التى يتم التعامل معها، وكذلك تم تحديد كميات النحاس التى يتم تصديرها؛ وإلى جانب ذلك تم إقرار منع تهريب البضائع وأيضا تحديد كيفية توزيع الأرباح على سكان مدينة ناجاساكى بمثل هذا التنظيم الصارم أصبح النظام التجارى الذى طبق فى ناجاساكى هو أكثر النظم التجارية فى عهد إيدو تنظيما وإحكاما، وحاول أراى عن طريق هذه السياسة حماية ثروة البلاد من الذهب والفضة من الضياع، ولكن من ناحية أخرى انعكست هذه السياسة الصارمة على الاقتصاد بشكل عام فأعاقت تطوره، ولكن لم يكن هناك شك فى أن أراى كان يفكر بجدية من أجل استقرار اقتصاد الباكفو وضمان حياة أفضل للمواطنين الذين عانوا كثيرا من الفساد قبل عهده.

٧ - نهاية الشوجون السادس والمستشار العالم:

بعد ولاية استمرة ثلاث سنوات وعشرة أشهر توفى الشوجون السادس طوكوجاوا إيينوبو، وخلال هذه الفترة القصيرة من الحكم استطاع إنجاز الكثير من الأعمال كما رأينا، وترك وريثه إييتسوجو وهو لم يزل فى الرابعة من عمره ليصبح الشوجون السابع اسما فقط، بالطبع فقد كان أراى هاكوسيكى هو الذى يدير شئون البلاد حتى توفى هذا الشوجون الصغير وهو لم يزل فى الثامنة من عمره، وعندئذ تم توليه حاكم مقاطعة كيشو (محافظة واكاياما) طوكوجاوا يوشيمونى Yoshimune (١٦٨٤م – ١٧٥١م) والذى امتدت فترة ولايته أو شوجونيته منذ عام ١٧١٦م إلى عام ١٧٥٤م وهذا الشوجون سوف يصبح من أهم الشوجونات الذين حكموا فى عصر إيدو.

ومع تولى يوشـيموتى الشوجونية انسحب أراى هاكوسيكى من حلبة السياسـة بعد أن أمضى فيها حوالى ثمانى سنوات أربع منهم فى خدمة الشوجون السادس إيينوبو وأربع أخر فى خدمة أو بالأحرى فى الوصاية على الشـوجون الصغير إيتسـوجو، وقد سميت السياسة الهادئة التى اتخذها المستشـار أراى بسياسة «شـوطوكو Shotoku» على اسم الفترة التقويمية الإمبراطورية التـى قابلتها زمنيا، وقد حاول أراى قدر جهده من خلال هذه السياسة أن يسير عكس السياسة الهادئة فى عصر جنروكو والتى كانت اسما فقط بأنها سياسة الأخلاق ولكن بسبب التصرفات غير المسـئولة والأنانية التى اتسم بها حكم الشوجون تسونايوشى فقد فقدت هذه السياسة كل معانى الأخلاق، ولكن برغم ذلك لم يستطع أيضا أراى هاكوسـيكى ذلك العالم الكنفوشـى أن يحقق ما يريده من خلال تطبيق التعاليم الكنفوشيوسية الجميلة أن يصلح من اقتصاد الباكفو أو أن ينهى انحلال فترة جنروكو، وذلك لأن أخلاقيات الكونفوشيوسـية اصطدمت بالواقع، ولذلك كان على ثورات التصحيح أن تنتظر قدوم شوجون أقوى ممن سـبقوا، وهذا ما سوف نراه من خلال حديثنا عن الشوجون الثامن طوكوجاوا يوشيمونى فى الفصل التالى.

* * *